

المنهج الوسطي للإسلام ووحدة الأُمّة الإسلامية

المنهج الوسطي للإسلام ووحدة الأُمّة الإسلامية

الدكتور محمد الكتاني

عميد كلية الآداب في مدينة تطوان - المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين
وصحبه المجتبين.

فإن من موجبات حمد الله أن هيأ لي أسباب حضور هذا المؤتمر الإسلامي الكبير الذي نظمته المجمع
ال العالمي للتقارب بين المذاهب الإسلامية بجمهورية إيران الإسلامية، جزى الله القائمين بهذا المؤتمر

وبالمجمع العالمي والعامليين في سبيل تحقيق ما يتطلع إليه من أهداف عليا خير الجزاء.

وإنني وإن كنت لم أتوقع هذا الحضور في هذا المؤتمر من قبل، وإنّما جاء حضوري بأُخره من الوقت فلم أعد له بحثاً يناسب المقام إلا أنّي لم أستطع إمساك نفسي عن المشاركة في الحوار والإدلاء لدى هذا المؤتمر ببعض الأفكار والتماسك الحكمة والفائدة من العلماء الأجلاء المشاركون فيه، وهذه مناسبة بلا شك تجيش فيها نفوس المؤمنين بأنبل العواطف وأعمق الأفكار حول عظمة رسالة الإسلام في إنقاذ البشرية من الأوهام فيما يرجع أولاً وأخيراً إلى حقيقة التوحيد بما وما يترتب على الإذعان لهذه الحقيقة الكونية.

—(282)—

العليا من أصول الإيمان وفروع العمل مما جاء بيانه في القرآن الكريم مفصلاً، وجاء في المسند النبوية مشخصاً ومطبقاً.

لقد انشأ الإسلام أمة قائمة البنيان على العقيدة والشريعة لا على القومية والعنصرية البشرية، وجعل هذه الأمة أمة وسطاء فقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْفِرْطَةَ الْأَنْتَيْ كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَ بِرَةٌ إِلَّا عَلَى الْأَذْرِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (1) والوسطية فيما أرى تتمثل في العقيدة والشريعة والخلق على حد سواء، كما تتمثل في منهج النظر والتفكير، فالإسلام لا يقبل الغلو ولا الإفراط في الجانب الروحي على حساب الجانب المادي من الحياة البشرية، كما لا يقبل الغلو والإفراط في الجانب المادي وإهمال الجانب الروحي لأن منهج الإسلام هو الجمع بين مطالب الجسد والروح في وفاق وانسجام.

ومنهج الإسلام هو النظر إلى هذا الكون المادي الطبيعي، وليس الوقوف فقط عند هذا النظر، وإنّما الاستدلال به على الحقيقة الإلهية القائمة فيه، بمعنى أن كلّ ما في هذا الكون دليل على وحدانية الله ربوبيته، ففي كلّ شيء له آية تدل على أنّه الواحده، ومنهج الإسلام يجمع في السياسة الاجتماعية بين حقوق الجماعة، ومنهج الإسلام في التشريع يضع التكاليف العملية على أساس الوسع والطاقة الإنسانية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

اَكُوْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا اِن نَّسِيْنَا اَوْ اَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْنَاهُ عَلَى الْذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنْنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا اَنْتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (2) ... يُرِيدُ اللَّهُ بِرِكُومُ الْيُسْرَ وَلَا
يُرِيدُ بِرِكُومُ الْعُسْرَ ... (3).

ومنهج الإسلام في الخطاب الإلهي - وهذا مهمٌ جداً - يكامل بين العقل والنقل، بين الوحي والاجتهاد، ويطالب العقل بالاعتبار وبالتفكير: ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَئِي الْأَلْبَصَارِ (4) ومعنى الاعتبار في الأحكام قياس الفروع على الأصول بشروط مقررة، ومعنى الاعتبار في النظر قياس الغائب على الشاهد، ومعنى الاعتبار في السلوك والموافق

1 - سورة البقرة: 143.

2 - سورة البقرة: 286.

3 - سورة البقرة: 185.

4 - سورة الحشر: 2.

-(283)-

اعتبار الحوادث الإنسانية خاضعة لناموس إلهي لا يتغير: سُنْنَةُ اللَّهِ فِي الْأَذْيَنِ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِهِ وَلَمْ تَجِدْ لِسُنْنَةِ اللَّهِ تَبَدِّلَ لِلَّالَّا (1) والاعتبار أيضاً بالتاريخ وبحوادثه.

وهذا المنهج هو المنهج الوسطي، ولذلك المنهج الشمولي الكوني الذي ارتضاه الله لهذه الإنسانية، وقد توافت هذه المقومات الأساسية في المنهج الإسلامي - كما رأينا - وفي نظامه الاجتماعي، وفي شريعته الجامحة بين الثواب والعقاب فكانت منطلقاً لتكوين الأمة الإسلامية الوسط، أي الأمة ذات المنهج الأمثل للحياة الإنسانية القائمة على التوحيد والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر.

وتكونت هذه الأُمّة الإسلامية بالفعل فتحّقت لها بفعل صلاحيّة هذا المنهج السيادة والانتشار وحضور الأقوام والأجناس لها مما هو مقرر في التاريخ، ولا معنى لإثارته هنا، ثم أصاب هذه الأُمّة الضعف والخلل والوهن بقدر ما حادت عن منهج الإسلام ووسطيّته من ناحية وبقدر ما اتسعت رقعتها واختلف الأقوام في هذه الرقعة الواسعة حول السلطة وحول الخلافة وحول المواقف اللازم اتخاذها من النزاع حول هذه المسائل.

فإنقسم المسلمين أولاً إلى فرقٍ سياسية ثم إلى فرقٍ كلامية ثم إلى فرقٍ فقهية على نحو ما هو معروف. وبعد قرون من التمزق السياسي والمصراع المذهبى تمكّن أعداء الإسلام من التأثير على دول الإسلام، فقد استجمع العالم الصليبي قواه بعدهما أصا به الذهول تطويق المسلمين للعالم القديم كلّه ومن تطويق المسلمين لأوروبا نفسها، وهبّوا أنفسهم للهجمات المتعددة التي كشفت - مع الأسف - مع توالي الأيام عن ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم، فوضعت أوروبا خططها للهيمنة على العالم الإسلامي وانتهى الأمر بال المسلمين - كما نعلم - في أخريات القرن الماضي إلى حالة من التردّي لا مزيد عليها.

1 - سورة الأحزاب: 62.

—(284)—

لكن ننتبه إلى المعجزة الإسلامية تتجدّد مرّة أخرى، لقد طنّ الطّاغون في نهاية القرن التاسع عشر من مستشرقين وعلماء تاريخ وساesse أن قوّة المسلمين قد ذهبت للأبد.

لقد تبيّن للمستعمرات الأوروبيّات أنّ بسط سلطانهم على العالم الإسلامي لا يمكن أن يتمّ إلا بسلاح فتاك يعمل عمله من الداخل، لا في المواجهات المكشوفة، وذلك السلام من شأنه أن يبدّد طاقاتهم في معارك مصطنعة، معارك تصليليّة، وعن طريق بذر الخلافات الدائمة والمتجددّة بين شعوبهم.

وما دام الدين الإسلامي - في نظرهم - هو القوّة التي لا يمكن مواجهتها مباشرة ولا يمكن محاربتها، فيبالإمكان تمزيقها إلى مذهبات وقوميات واصطدام الخلافات المذهبية القائمة على الخنادق العميقه

وفي سياق هذه الحرب الخفية والمعلنة على الإسلام والمسلمين استطاع أعداؤنا أن يستغلوا سلاح التفرقة المذهبية حيناً، وأن يستغلوا المصراع حول المصالح الغربية والنعرات القومية التي تحول الأواصر العرقية أقوى من العناصر الدينية حيناً آخر، وهكذا اتجهت الغارة نحو العالم الإسلامي في جبهات متعددة، اتجهت أولاً: وبمساعدة العلماء، لإثارة العرقيات والقوميات، واتجهت ثانياً: لتعزيز الخلاف المذهبي وإثارة كلّ ما يمكن من الخرافات والأساطير حوله، واتجهت ثالثاً: إلى الثقافة الإسلامية في الجامعات والمدارس، ثم تحرّكت الدعوة في العالم العربي - وهذا شيء مهم - للدعوة إلى ترك اللغة العربية الفصحى والأخذ بالعاميات لتمزيق العالم العربي تمزيقاً لا قيام بعده.

في هذا المنعطف التاريخي الدقيق أصبح من الواجب توظيف الصحوة الإسلامية لحماية كلّ قاعدة من القواعد التي اتجهت إليها هذه الغارة، وهنا ينبغي أن ننتقد بمنهج الإسلام في الاستجابة لهذا التحدّي الخطير، وأقصد بالمنهج الإسلامي ذلك المنهج القرآني

—(285)—

الذي انتهجه خطاب الله تعالى للبشرية من الدعوة إلى التوحيد والإخوة الدينية وتكوين المجتمع الإسلامي على أساس راسخة.

وكان هذا المنهج - كما نعلم - ينتقل بالتدريج من العام إلى الخاص، ومن الدعوة إلى الله بالحكمة لمن تناسبه الحكمة وبالموعظة الحسنة لمن تناسبه الحكمة والموعظة الحسنة، وبالجدال بالتالي هي أحسن لمن يستحقون هذا الجدال، وكان هذا المنهج في لبّيه يقوم على تخلية القلوب مما ران عليها من الشك واللونية، والعقول مما أعمها من التبعية والتقليل، حتى إذا انكشف للقلب والعقل معاً صفاء الحقيقة اندفعاً إليها بدون هواة ولا تردّ.

والليوم نحن في أشد ما تكون حاجة لهذا المنهج، منهج قلع الأشواك والأحجار من طريق السير نحو المكاشفة بين الشعوب الإسلامية، منهج إخلاء القلوب والعقول مما ترسّب فيها من أوهام وتصورات خاطئة جعلت كل شعب من الشعوب الإسلامية يتوجّس خيفة من الشعب الآخر، ثم ملأ هذه القلوب وهذه العقول بالحقائق الموضوعية عن القواسم المشتركة بيننا جميعاً، تاريخاً وعقيدةً وثقافةً ورؤياً حضارية متميّزة. وهذا المنهج - في نظري - لا بدّ له من تخطيط، ولا بدّ له من مراحل:

المرحلة الأولى: تحقيق التعارف بيننا بصفتنا مسلمين، لأنّني أنا شخصياً أقف لأول مرّة في بلاد الجمهورية الإسلامية في إيران على حقائق كاشفة قاهرة بالمعانية، الأمر الذي لم يكن متاحاً لي عن طريق الكتب والمؤلّفات، فهذا التعارف يجب أن يباح لكلّ بلد إسلامي، وأن يتمكّن كلّ المسلمين من معرفة الشعوب الإسلامية الأخرى بكل وسائل الإعلام والتعليم، والاتصال، والأسفار، والملتقيات، والمؤتمرات، وما في حكم هذا المعنى.

ونحن نعلم أنَّ هذا التعارف أتاحهُ الإسلام في فريضة الحج، فينبغي أن نطّوره ونذهب بعيداً في تطويره بكل الوسائل. في هذا المرحلة من التعارف الذي يجب أن تسخر له كل وسائل الإعلام العصرية يتعمّد على العلماء والمفكّرين بشكل خاص أن يطّلعوا على كلّ ما يتعلّق بالبلاد الإسلامية ونشر ذلك لأقوامهم.

—(286)—

المرحلة الثانية: العمل على التقرير بين المذاهب الإسلامية، لأنَّ المذاهب الإسلامية حقيقة قائمة، ولا يمكن تجاهلها، إلا أنَّنا ينبغي أن نهتم بهذا التقرير في المستوى العلمي وفي المستوى الكلامي والتشريعي على نحو مفصل.

وأنا أُريد هنا أن أورد كلمة لأحد العلماء الشيعة الأفاضل وهو العالم محمد تقى القمي الذي كان من رواد التقرير؛ يقول في كلمة من كلماته الودّاءة: «إنَّ الطوائف التي نعمل على التقرير بينها هي السنّة بمذاهبها، والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية، فهل المسائل التي اختلف فيها هؤلاء أدت إلى أن كفّرت بها طائفة صاحبتها؟ الجواب: كلا فإنَّ أحداً من علماء هذه الطوائف لم يرم الطائفة الأخرى بالكفر ولم يقذفها بالمرء من الإسلام، وما ذلك إلا لأنَّ الخلاف إنما وقع في الفروع، لا في الأصول، ولعل قائلاً يقول: ما هذه الأصول التي تجعل حدّاً فاصلاً بين المسلمين جميعاً وغيرهم؟» يقول الشيخ القمي - أذكر له على سبيل المثال لا على سبيل الحصر -: «نحن جميعاً نؤمن بما ربّاً وبمحمد صلّى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً، وبالقرآن كتاباً منزلاً، وبالكعبة قبلة وبيتاً محجوباً، وبأنَّ الإسلام مبني على القواعد الخمس المعروفة، وبأنَّه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله رسول، بأنَّ كلَّ ما جاء به محمد صلّى الله عليه وآله وسلم حقٌّ، وأنَّ ما اختلفنا فيه من شيء فحكمه إلى الله رسوله (أي إنَّنا متّفقون على هذه الأصول)». ثم يقول بعد ذلك: «إنَّه ليس من أغراضنا أن يتسيّع سدىٌ ولا أن يتتسّد شيعي، بل لو نظرنا إلى أصل التسمية في هذين الاسمين لوجدنا المسلمين كلَّهم شيعة لأنَّهم

جميعاً يحبّون آل البيت، آل بيت رسول الله عليه وآله وسلم متى ثبتت بالطريقة الصحيحة».

المرحلة الثالثة: مرحلة تنظيم التقرير على مستوى التربية والتعليم، وأنا بصفتي

(287)

رجالاً مربّياً واستاداً في الجامعة أهتمّ بهذا الجانب غاية الاهتمام، فينبغي أن تكون في مقرّرات دراساتنا في جميع المدارس والجامعات وجميع المستويات مقرّرات من شأنها أن تبلغ حقيقة الإسلام (تفصّل الشيخ سعيد شعبان من قبل وأشار إلى أن هذه الطرق والمناهج يجب أن يجعل المسلم مسلماً أولاً وقبل كلّ شيء).

ولابدّ في هذه المرحلة من اتخاذ خطوة صريحة أقترحها على هذا المؤتمر الكريم، وهي أن لا نهمل اللغات في مسألة التقرير، ففي البلاد العربية قلّما تجد أحداً يتعلّم في الجامعة اللغات الإسلامية الأخرى، وفي الجامعات الإسلامية غير العربية قلّما تجد طلاباً يقبلون على اللغة العربية، فينبغي أن نتبادل ونتقاسم التعليم للغات الإسلامية وأن نجعل لغة القرآن لغة مقرّرة كلغة ثانية بعد اللغة الأمّ على الأقلّ، لأنّنا نخجل من أن يتعرّف المسلم مع المسلم بلغة أجنبية كالإنجليزية والفرنسية، لأنّ المثقف لا يتأثر بهذه اللغة إلا إذا تأثّر بفكرها، فينبغي أن نقارب لغويّاً ما يمكن ذلك وأن نخطّط لهذا التقرير اللغوي بين العالم الإسلامي.

إنّ هذه المراحل التي أقترحها لتحقيق التقرير ليست منفصلة بعضها عن بعض، بل ينبغي أن تكون متزامنة متكاملة وهي جميعها تتطلّب اتخاذ قرارات وتحطيمات موحّدة لتحقيق ذلك التعارف والتضامن والتألف بين المسلمين. وهذا الاتجاه المقصود منه هو إعزاز دين الله في الأرض وضمان الأمن السياسي والاجتماعي للأمم الإسلامية لتحقيق الرسالة الوسطية التي أشرنا إليها، هذه الرسالة التي ينتظر العالم الكافر أن نبلغها إليه.

فينبغي أن لا نكتفي أن نكون مسلمين وإنّما ينبغي أن نبلغ الدعوة لأنّ هذا هو الواجب أي أنّه يقع على عاتقنا - نحن المسلمين - جميعاً أن نكون أولاً مثالاً للإسلام، وأن ننقل هذا الإسلام إلى غيرنا. وإذا كان كما يقرّ الأصوليون «ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو

(288)

واجب» فواجب الوحدة يعتبر طريراً إلى تحقيق الأُمّة الإسلامية العظمى.

شكر الله لنا ولكلم جميعاً ما نقوم به من جهود ووفقاً للعاملين في سبيل الوحدة، وشكر الله جهود المجمع العالمي للتقرير، ووفقاً لمني الله وإياكم لما فيه خيره ورضاه، والسلام عليكم ورحمة الله.